

(العَالِمُ كُلَّما بَذَلَ عِلْمَهُ لِلنَّاسِ وَأَنْفَقَ مِنْهُ تَفَجَّرَتْ يَنَابِيعُهُ، وَازْدَادَ كَثْرَةً وَقُوَّةً وَظُهورًا، فَيَكْتَسِبُ بِتَعْلِيمِهِ حِفْظَ مَا عَلِمَهُ، وَيَحْصُلُ لَهُ بِهِ عِلْمُ مَا لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ)

ابن القيِّم (٧٥١هـ)



عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:
«إِنَّ اللهَ قَالَ لِي: أَنْفِقْ أُنْفِقْ عَلَيْكَ».
أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ» (٩٩٣).

(١)

كثيرًا ما يأتي ذِكرُ التعليمِ وفضلِه حين الحديث عن زكاةِ العلم، وفضيلةِ الإرشاد، وضرورةِ بثِّ العلم في الناس ليرتفعوا به عن حضيض الجهل .. وهذا بابٌ من الفضل جليل، لكنَّ التعليمَ مع ذلك يُعَدُّ أحد (طرق العلم للمعلم قبل المتعلم، إذا عرف كيف يصرِّف مواهبَه، وكيف يستزيد وكيف يستفيد، وكيف ينفُذُ من قضيَّةٍ من العلمِ إلى قضيَّةٍ، وكيف يخرج من بابٍ منه إلى باب)[1].

فكما أنَّ التعليمَ أداةٌ ناقلةٌ للمعارف يُرسِل بها المعلِّم ما تلقَّاه وحصَّله إلى غيره، فهو أداةٌ لاستقبال العلم وتحصيله، وذلك أنَّ التعليم ضربٌ من التفاعل العلمي، ومن شأن التفاعل العلمي استكمالُ الصورة العلمية لمختلف الأطراف، فالمرءُ حالَ تحصيله العلمي الذاتي لا يتكشَّفُ له ما غاب عن ذهنه من العلوم حتَّى يشفعَ إلى ذهنِه أذهانَ غيره، فإنَّ لكلِّ ذهنٍ تركيبتَه الخاصَّةَ التي تتحكَّم في نوعِ ومستوى المعارف التي يحصِّلُها ويعالجُها، ومن هنا كان في إدارة المعرفة بين عدَّةِ أطرافٍ استكمالٌ للصورة العلمية المنطبعة في ذهنيَّة المحصِّل - مُلقِيًا كان أو متلقِّيًا - وتوفيقٌ بين مختلف أنواع المعرفة ومستوياتها.

---

(١) آثار محمد البشير الإبراهيمي (٣: ٢٦٨)

(٢)

التعليمُ وإن كان معدودًا من مذاكرة العلم إلّا أنه يمثّل نمطًا خاصًّا من المذاكرة، وذلك أنَّ المذاكرة غالبًا ما تكون بين طرفينِ مشترِكَيِ الرُّتبةِ، ولذا كان من شرط قرين المذاكرة - كما تقدَّم في الفصل الماضي - المشاكلةُ في العلم والفهم والاهتمام، أمَّا التعليم فالأمر فيه بخلاف ذلك، فإنَّ المعلمَ غالبًا ما يكون في المادَّة التي يلقيها أعلى رتبةً من المتلقِّي، وهذا يعطيه ولايةَ تقديم المعلومة وإدارةَ عرضها، فهو وإن اشترك مع تلاميذه في مداولة المعرفة ومذاكرة العلم إلا أنَّ نصيبَه في تقديمها أوفر، وهذا يضطرُّه إلى استيفاء أركان المادَّة العلمية لعرضها وتقديمها في صورة مكتملة، غيرَ أنَّ هناك مسافةً فاصلةً بين المادَّة المعدَّة والمادَّة الملقاة تمثِّل امتحانًا لمدى صدق اكتمال الصورة العلمية، وهي التي تجعل من التعليم مذاكرةً للعلم وذريعةً إلى تحصيله.

ففي مَعمَلِ التحضير لمجلس التعليم يجتهد المعلِّمُ في استيفاء المادَّة جمعًا وتحليلًا، فإذا ما مَثَل لطلابه وتلقَّفتْه سؤالاتهم إذا بثغرات المادَّة الملقاة تتكشَّف، وهذا التكشُّفُ هو ما يعين على تجويد المادَّة العلمية، فهذه السؤالات الكاشفة إمدادٌ لذهن المعلم بمدادِ مجموعةِ أذهانٍ تختلف عنه في التكوين المعرفي، وطريقة التفكير، ونوع المشكلات الواردة .. والعلمُ بشِعَابِه، واختلافِ مناهجِه، وتنوُّعِ أدواتِه، وتَفَاوُتِ مستوى موادِّه عُسْرًا ويُسْرًا = يجعل لكل محصِّلٍ - معلمًا كان أو تلميذًا - طبيعةً علميَّةً خاصَّةً تُفارِقُ بينه وبين أقرانه ومعلِّميه .. هذه المنطقة من المفارَقة هي التي تُنجِب تلك السؤالات.

وقد يُظَنُّ باديَ الأمرِ أنَّ تلك الثغرات تنحصر في قصورِ جمعِ المادَّة العلميَّة، وليس كذلك، فكما أنَّ الثَّغَراتِ تتناول القصور في جمع المادَّة فهي تتناول أيضًا نقصَ الوعي بالمادَّة نفسها، فما يجنيه المعلِّم إذًا من تعليمه يقع في جانبين: جانبٌ يتعلَّق بقصور جمع المادَّة، وآخرُ يتعلَّق بالقصور في الوعي بالمادَّة، وأفراد ذلك لا تنحصر، فمنها: القصور في تصوُّر المادَّة، والقصور في جمعها ومنعها - ما يدخل فيها وما يخرج منها -، والقصور في إدراك أصولها ولوازمها، وغيرها كثير، فالتعليم يقدِّم للمعلم تصوُّرًا أنضجَ حول مادَّته العلمية بتجويدِ مكوِّناتها ومَلْءِ فراغاتها.

(٣)

ها هنا أمرٌ لا بُدَّ من تثبيته، وهو أنَّ ما يجنيه المعلم من تعليمه مرهونٌ بمستوى المتلقِّين، فبقدر حذقِ الطلبة، وسلامةِ تكوينهم، وتمكُّنِهم من إثارة السؤالات وتجويدها = ينتفع المعلِّم بتعليمهم ومذاكرتهم وتلقِّي سؤالاتهم.

قال السخاوي (٩٠٢هـ): (قال ثعلب: إنما يتَّسِعُ علمُ العالم بحسب حِذْقِ مَن يسأله، فيطالبه بحقائق الكلام وبمواضع النكت، لأنه إذا طالبه بحقائق الكلام احتاج إلى البحث والتنقير والنظر والفكر، فيتجدَّدُ حفظُه، وتتَّسِعُ معرفتُه، وتقوى قريحتُه)(١).

---

(١) الجواهر والدرر (٢: ٦٩٧). والمتيقَّن من كلام ثعلب: (إنما يتَّسِعُ علمُ العالم بحسب حِذْقِ مَن يسأله)، والأشبه فيما بعده أنه من تعليق السخاوي، والله أعلم.

أمّا لو كانت أذهانُ التلاميذ كالَّةً عن العمل، وسؤالاتُهم نافرةً عن معاقد المشكلات، فقلّما ينتفع المعلّم بتعليمهم ومذاكرتهم، ومَن غَفَلَ عن ذلك من المعلمين، أو جَزِعَ من تلقّي سؤالات طلابه، واقتصر في تعليمهم على تلقينهم دون تثوير أذهانهم واستنطاقها = كان هو الخاسرَ الأوَّلَ.

قال الخليل (١٧٠هـ): (إذا لم تعلِّمِ الناسَ ثوابًا، فعلِّمْهم لتدرُسَ بتعليمهم علمَك، ولا تجزعْ بتفريع السؤال، فإنه ينبِّهُك على علم ما لم تعلم)[١]. وهو القائل: (اجعل تعليمَك دراسةً لك)[٢].

فلم يدركْ فضلَ التعليم وعوائدَه التحصيليَّةَ مَن لم يستنطقْ بتعليمه عقولَ طلابه، ولا مَن تنكَّبَ سؤالاتِهم ولم يرفعْ بها رأسًا، بل إنَّ مِن حصافةِ المعلِّمِ استعدادَه لسؤالات طلَّابه، واستشرافَه لمشكلاتهم، لا مجرَّدَ تلقِّيها، بل ينبغي أن يكون هو السَّابقَ لهم بحسن تحضيره وإحكام إعداده، كما كان يصنع ابنُ عرفة (٨٠٣هـ)، فقد حُكِيَ أنه عُوتِبَ على كثرة اجتهاده وتعبه في النظر، فقال: (كيف أنام وأنا بين أسدين: الأُبِّي بفهمه وعقله، والبُرْزُلي بحفظه ونقله؟!)[٣].

فهذه القدرة المعرفيَّة لتلميذَي ابنِ عرفة هي التي أقضَّت مضاجع راحته وساقَتْهُ لكثرة الاجتهاد، وقد كان بوسعه أن يُلزِمَ طلابه بنمط من التعلُّم يستقلُّ فيه المعلِّمُ بإلقاء ما أعدَّه دون الْتيائِه بمشكلات طلابه،

---

(١) جامع بيان العلم وفضله لابن عبدالبر (١: ٣٢١).
(٢) جامع بيان العلم وفضله (١: ٤٢٦).
(٣) كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج للتنبكتي (٢: ١٢٥).

لكنه مُدرِكٌ لعظيم أثر تلك المقدرة المعرفية التي تحلَّى بها طلابه في تجويد علمه ونظره.

ومن سادة المعلِّمين الذين كان مجلسُ تعليمِهم مجلسَ مذاكرةٍ بامتياز: الإمامُ أبو حنيفة (١٥٠هـ)، فلم يكن درسُه تلقينيًّا، بل كان يثيرُ المسائلَ، ويدير النَّظرَ فيها مع طلابه، فيسمع ما جال في عقولهم، ويُسمِعهم ما عنده، ثم يناظرهم حتى يستقروا على رأيٍ، وكان لا يملُّ ولايضجَرُ، بل كان -كما وصفه صفيُّه وتلميذُه أبو يوسف (١٨٢هـ)- (صبورًا على تعليم العلم، شديدَ الاحتمال لما يناله فيه)[1] .. وبهذه المذاكرة والمناظرة التي كان يديرها أبو حنيفة تخلَّق مذهبه وتكامل.

وهنا لم يقتصر الأمر على مجرد فتح النوافذ لسؤالات الطلبة، فإنْ أتت وإلّا فلا، بل كان أبو حنيفة هو السابقَ لإنبات بذور السؤالات في عقول طلابه.

قال الموفَّق المكي (٥٦٨هـ) شارحًا ذلك بعد أن ذكر كبار أصحاب أبي حنيفة: (وضع أبو حنيفة رحمه الله مذهبه شورى بينهم، لم يستبِدَّ فيه بنفسه دونهم، اجتهادًا منه في الدين، ومبالغةً في النصيحة لله ورسوله والمؤمنين، فكان يلقي مسألةً مسألةً، يُقلِّبُهُم، ويسمعُ ما عندهم، ويقول ما عنده، ويناظرهم شهرًا أو أكثرَ من ذلك حتى يستقرَّ أحدُ الأقوال فيها، ثم يُثبِتُها القاضي في الأصول، حتى أثبتَ الأصولَ كلَّها)[2].

(١) أخبار أبي حنيفة وصاحبيه للصيمري (٥٥).
(٢) مناقب أبي حنيفة (٢: ١٣٣-١٤٣).

ويقول د. إحسان عباس (١٤٢٤هـ): (إلى طريقة أبي حنيفة في تدريس الفقه يعود الفضل في قدح زناد الفكر لدى تلامذته وفي مقدمتهم أبو يوسف، فقد كان يشركهم في الرأي، ويستمع إليهم، ويأخذ بآرائهم إذا وجدها صائبة، ويرخي لهم العنان في المناقشة بين يديه، ويطلعهم على طريقته في القياس والاستحسان، ويعطي لهم الحرية في الاجتهاد، حتى لَيُمكِنُ القول إن ما يسمى المذهب الحنفي إنما هو وليد الاحتكاك بين أفكارِ عددٍ من التلامذة النجباء يوجُّههم أستاذٌ عبقريٌّ)[1].

ومنه يُعلَم أنَّ الطالبَ على ما راضَهُ به معلِّمُه، فعلى حسب ما يلقيه في ذهنه من بذور الصناعات والملكات المعرفية يكون حصادُه، فإذا كان المعلِّمُ فقيرَ العطاء كان طالبُه أحرى بذلك، فلا يُرجَى من تعليمه الانتفاعُ، ولا الوقوفُ على مضايق المعضلات أو التحذُّقُ بحل المشكلات.

(٤)

من جليل عوائد التعليم إضافةً إلى ما تقدَّم: حلُّ مشكلات المعلِّمِ نفسِه، فكما ينتفع المعلِّم بما يثيره الطلبة من إشكالاتٍ طرأتْ عليهم، فيكون ذلك حافزًا له على تجويد التحضير استعدادًا لِـمَا قد يَرِدُ عليه، كما يحفزه لمزيدٍ من البحث والنظر إذا ورده إشكال لم يكن جوابُه حاضرًا في مجلس الدرس = ففي مقابل ذلك فإنَّ المعلمَ ينتفع بتعليمه في حلِّ مشكلاته نفسِه، بحيث يكون حَلُّ المشكلة المعرفيَّة كامنًا في مجرَّد التحدُّثِ بها وتعليمِها!

(١) بحوث ودراسات في الأدب والتاريخ (١: ٨٠).

يقرِّرُ ذلك ابن القيم (٧٥١هـ) في كلامٍ مشرقٍ مبيِّنًا عوائدَ التعليم وفوائدَه للمعلِّم، فيقول:

(العالمُ كلَّما بذل علمَه للناس وأنفق منه تفجَّرت ينابيعه، وازداد كثرةً وقوَّةً وظهورًا، فيكتسب بتعليمه حفظَ ما علمَه، ويحصل له به علمُ ما لم يكن عنده، وربَّما تكون المسألة في نفسه غيرَ مكشوفةٍ ولا خارجةٍ عن حيِّزِ الإشكال، فإذا تكلَّم بها وعلَّمها اتَّضحتْ له وأضاءتْ وانفتحَ له منها علومٌ أُخَر. وأيضًا فإنَّ الجزاءَ من جنس العمل، فكما عَلَّم الخلقَ من جهالتهم جزاه الله بأنَّ علَّمَه من جهالته، كما في صحيح مسلم [٢٨٦٥] من حديث عِيَاض بن حمار عَن النَّبِي ﷺ أنه قال في حديثٍ طويلٍ: «... وأنَّ الله قال لي: أَنفِقْ أُنفِقْ عَلَيْك». وهذا يتناول نفقةَ العلم: إمَّا بلفظه، وإمَّا بتنبيهه وإشارته وفحواه)(١).

ومن شواهد ذلك ما كتبه الفيلسوف والاقتصادي البريطاني جون ستيوارت مل (١٢٩٠هـ) في سيرته الذاتية حين ذكر قصة تعلمه اللاتينية، حيث كان يتعلَّمها، ثم يشرح لشقيقته ما تعلَّمه، ثم تذهب شقيقتُه إلى والدها لتكرر الدروس عليه، ثم التحق بالدرس بعض أشقائه وشقيقاته، ومع تصريحه بأن هذا الدور لم يكن يعجبه إلا أنه سجَّل شهادةً مهمَّةً في هذا السياق حيث قال: (صرتُ بسبب التعليم مسؤولًا عن دروس تلامذتي بقدر ما كنت مسؤولًا عن دروسي نفسها تقريبًا، لكنني استفدت من هذا النظام فائدةً عظيمةً، لأنني صرت أدرِّس على نحوٍ أكثر اشتمالًا وأحتفظ

---

(١) مفتاح دار السعادة (١: ٣٦٣-٣٦٤).

زمنًا أطول بما كان ينبغي عليَّ تعليمُه، ولعلَّ اشتمال تلك المهمة على شرح النقاط الصعبة للآخرين كان مفيدًا لي في ذلك الوقت أيضًا)[1].

ومما يتَّصِلُ بهذا الشاهد، ويشيرُ إلى أثر التعليم في تقحُّم مشكلات المعرفة ما كتبه جلال أمين في سيرته الذاتية حول وظيفة التدريس وأثرها في تحرير المادَّة العلمية وتجويدها، وكذا في الابتكار والإنتاج العلمي، فقد قال بعد أن عدَّد جملة من مزاياها: (أتاحت لي وظيفة التدريس مزايًا أخرى كانت ذات أهمية كبيرة لي، فقد وجدتُّ أنَّ أفضلَ طريقةٍ لفهم المشكلة المعقَّدة أن يضطرَّ المرءُ لتدريسها، إذ إنَّ الطلبة رقباء ممتازون على درجة فهم الأستاذ لما يقول، وهذا يجبر الأستاذ على فعل المستحيل حتى يصبح قادرًا على مواجهة أي سؤال لتوضيح ما يقوم بشرحه ... تتَّصِلُ بذلك ميزة أخرى، هي الابتكار والاهتداء إلى أفكار جديدة، فالمحاولة المستمرة للتعمق في الفهم استعدادًا لمواجهة التلاميذ كثيرًا ما تقود الأستاذ إلى أفكار جديدة قد يكون بعضها ذات قيمة، والحقيقة أنني مدينٌ للتدريس بكثير من مقالاتي وكتبي، فإذا كان لبعضها بعضُ النفع فهو بلا شك نابعٌ في الأصل من خوفي من أن أقول كلامًا غير مفهوم)[2].

(١) سيرة ذاتية (١٢).

(٢) ماذا علمتني الحياة (٢٨٨).

إذا تقرَّر ما مضى عُلِمَ منه أنَّ التحصيلَ بالتعليم ليس قاصرًا على الأشياخ المنتهين، بل إنَّ لطالب العلم نصيبَه من ذلك ما دام التعليمُ ذريعةً إلى التعلُّم والتحصيل، ولا حجرَ عليه في التصدُّر لذلك ما دام غرضُه تحقيقَ قدرٍ من الإفادة والاستفادة مع تأهله لما تصدَّر له، فليس الأمرُ إذًا حكرًا على العلماء البالغين من العلم ذروتَه، بل هو مشاعٌ لكلِّ مَن له حظٌّ من العلم، وقد قال الإمام مالك (١٧٩هـ): (لا ينبغي لأحدٍ عنده علمٌ أن يتركَ التعليم)[١].

وقد يُجابَه طالب العلم حين يبغي الـمُثُولَ للتعليم ببعضِ عباراتٍ عن السلف فيها الذمُّ للتصدر، وما فيه من سَلْب التوفيق، وأن الحَدَثَ إذا تصدَّر فاته خير كثير، وانقل ما شئتَ وراءَ ذلك ... لكن عليه ألَّا ينكسرَ أمام ذلك، فإنَّ ذمَّ التصدُّر المبكِّر وإن كان معنًى معتبرًا، وكلام السلف والعلماء حيال ذلك صحيحٌ لا غبار عليه، إذ لا شكَّ أنَّ التصدُّرَ مزلَّةُ قدم، إلَّا أنَّ المراد منه ليس كما يتصوَّرُه بعضهم من حَجْزِ الطالب عما له به انتفاعٌ من الكتابة والتعليم ونحوها من نوافذ العلم والتحصيل، وإنما المرادُ منه التصدُّرُ الذي يترأَسُ به الطالب فيكون ترؤُّسه حائلًا بينه وبين التحصيل، ولذلك صرَّح بعضهم بهذا المعنى، كما قال سفيان الثوري (١٦١هـ): (من ترأَسَ سريعًا أضرَّ بكثيرٍ من العلم، ومن لم يترأَسْ طلب وطلب حتى يبلغ)[٢].

---

(١) ترتيب المدارك للقاضي عياض (٢: ٢٦).
(٢) مسند الدارمي (١: ٤٠٥ - رقم: ٥٧١).

فالتصدُّرُ الذي يترأَسُ به طالب العلم وينأى به عن تحصيل العلم والاستزادة منه هو التصدر المذموم، لا التصدُّرُ الذي يكون سبيلًا لتحصيل العلم والاستكثار منه.

ولم يرد في نصوص الشرع حظر التصدُّر المبكِّر، بل إنَّما حظر التصدُّرَ الفاقدَ لشرط الأهلية، وعلى ذلك جرت البيئات العلمية في مختلف القرون، وما يُذكر في دواوين الطلب وآداب العلم من آثارٍ دالَّةٍ على ذم التصدُّر فمعناها زيادةً على ما تقدَّم استعمالُ التريُّث لا حسمُ المسارعة إلى الخيرات متى ما توفَّر شرطُها، ونظير ذلك ما جاء في صحيح مسلم [٤٣٢] من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ليَلِني منكم أولو الأحلام والنهى». فليس المرادُ به تأخيرَ المتأهلين من الصغار، ولا تقديمَ كل ذي حلم ونهية من الكبار، بل القصد رعايةُ المقصود من أمر الشارع، وهو أن يكون للإمام من ينبهه إذا غفل ويخلفه إذا احتاج.

ثمَّ إنَّ على طالب العلم أن يفقه أنَّ للتصدر مراتبَ، كما هو الحال في الاجتهاد، فشرعنة أصل التصدُّر لا يعني أن تبلغ هذه المشروعية به غاية المراتب، وكما أنَّ الاجتهادَ يتجزَّأ فكذلك القولُ في التصدُّر، فالتأهُّلُ للتعليم لا يعني التأهُّلَ للفتيا، والتأهُّلُ لتعليم صغار الطلاب لا يعني التأهُّلَ لتعليم كبارهم، والتأهُّلُ للكتابة لا يعني التأهُّلَ للمحاضرة، وهلمَّ جرًّا.

ووزن طالب العلم لمرتبتِه يفتقر إلى جملة معطيات، من أخصِّها: مصالحةُ النفس ومكاشفتُها في الخلوات، فربما رأى مَن يحيطُ به من الأشياخ أهليتَه وهو يرى خلاف ذلك، فليتريَّث .. وربما رأى مَن حوله عدم أهليَّته

فليمتحن رؤاهم ولينظر في بواعثها، فإذا رآها منطقيَّةً لانَ لها وسلَّم قياده لإرشادها، ومصالحةُ النفس من أعونِ ما يديرُ به طالب العلم حالَه، فليتَّقِ الله في خطواته، ولا يجامِلْ نفسه على حساب دين الله تعالى.

ومن معطيات وزنه لمرتبتِه: شهادةُ أهل الفضل المتجرِّدين من حظوظ النفس، وكلما كان لطالب العلم مَن يسدِّد سيره ويكافحه بعيوبه كان محكَمَ المشية، واثِقَها.

قال ابن المقفع (١٤٢هـ): (على العاقل أن يُؤنِسَ ذوي الألباب بنفسه ويُجرِّئَهم عليها حتى يصيروا حَرَسًا على سمعه وبصره ورأيه، فيستنيمَ إلى ذلك، ويُريحَ له قلبَه، ويعلمَ أنهم لا يغفلون عنه إذا هو غَفَلَ عن نفسه)[1].

*****

كان أبو الحسن الجِلاوي (٧٨٢هـ) من المعلِّمينَ الحاذقينَ الجامعينَ لعدة علوم، وكان حريصًا على طلابه، عظيمَ العناية بهم، ومما جاء في ترجمته أنه كان (مجتهدًا في تكميل الطالب)[2]. وهذه جملةٌ عزيزةُ الوجود، حُلْوَةُ الطعم، عَذْبةُ المذاق!

والجِلاويُّ لما كان هذا شأنه كان عظيمَ المحبَّة للتعليم، بل كان (يرى أنَّ التعليمَ أفضلُ من التصنيف)، وليس هذا منه تزهيدًا في آثار التصنيف

(١) الأدب الصغير (٢١).
(٢) كفاية المحتاج للتنبكتي (١: ٣٥٠).

وثمراته، إذ لا شكَّ أنَّ التصنيف أبقى أثرًا، والتاريخُ العلميُّ شاهدٌ على ذلك، لكني أحسِب أنه كان يريد بذلك الإشارةَ إلى أن التعليمَ أفضلُ من جهة كونه تفاعلًا علميًا بين الطلاب والشيوخ، وهذا منتفٍ في التصنيف، والتَّفَاعلُ بين الطلبة وأشياخهم يجلب لكلٍّ منهم فوائدَ، ويفضي بهم إلى مسالكَ من التحقيقِ والتحريرِ ما كان لهم نوالها لولا أنْ دفعتْهُم إليها مجالسُ التعليم، ولذا كان الجِلاويُّ (٧٨٢هـ) مهمومًا بتكميل طلابه، فلهذه الفائدة التي اختصَّت بها مجالس التعليم كان التعليم أفضلَ من هذه الحيثيَّة.

ومَن جرَّب التعليمَ وذاقَ عوائدَه كان ضنينًا بمجالسه أن تشبَّ عن طَوْقه، عظيمَ التمُّسك بطلابه وتعليمهم، وانظر إلى أبي إسحاق إبراهيم بن فتوح (٨٦٦هـ) - مفتي غرناطة، وشيخ علماء الأندلس في زمانه - كيف كان مدركًا لعظيم أثر التعليم وجليل عوائده، حتَّى قال: (لو استغنيتُ عن المعونة بالوظائف لتركتُها إلَّا وظيفة التدريس لِـمَا لي فيها من الانتفاع بمذاكرة الطلبة)[1] .. فكَمْ لكثيرٍ من التلاميذ من مِنَنٍ على أشياخهم بفضل توقُّدِ أذهانهم وحُسنِ سؤالاتهم.

حاصلُ الأمر أن التعليم من أشرف مقامات التحصيل والمذاكرة العلمية، ولو لم يكن منه إلا تثبيتُ علم المعلِّم لكفى، فكيف وهو وسيلة إلى كشف مشكلات العلم والإشراف على دقائقه، فعلى طالب العلم أن يأخذ بحظه من التعليم بما يليق بمثله حسب وزنه العلمي ومرتبته المعرفية، (ومن يُؤْتَ الحكمةَ فقد أوتي خيرًا كثيرًا).

---

(١) روضة الإعلام بمنزلة العربية من علوم الإسلام لابن الأزرق (٢: ٩١٥).



(مَا أَغْفَلَنَا عَمَّا يُرَادُ بِنَا!)

أبو بكر القفال (٤١٧هـ)

عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُولُ:

«اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ، وَمِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ، وَمِنْ دَعْوَةٍ لَا يُسْتَجَابُ لَهَا».

أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ» (٢٧٢٢).

(١)

من القواعد العظيمة الأثر في شريعة الله تعالى ما اصطلح عليه الفقهاء بقولهم: (الغُنمُ بالغُرم) .. وأصلُها ما جاء في المسند والسنن من قول النبي ﷺ: «الخراج بالضمان».

وهذه القاعدة تجسيدٌ لمعنى التلازم بين النماء والدرك، والفائدة والخسارة في الأحكام الفقهية، فكلُّ من كان معرَّضًا للخسارة فهو مستحقٌّ للربح، والمبيعُ لما كان تلفُه داخلًا في ضمان المشتري فإن غلَّته ونماءَه تكون من حظِّه وغُنمِه.

ولا يكادُ ينفكُّ أمرٌ من أمور الدنيا والآخرة عن تسلُّط متلازمة الربح والخسارة عليه، فالعبادة التي يسعى الناسك لتحصيل حلاوتها ربما استحالت جحيمًا عليه فيما لو داخل العُجبُ قلبَه وسيطر عليه.

وكذلك العلم .. فإنَّ محصِّلَه لما كان من أعلى الناس مقامًا في الجنة لو استقام قلبُه وتجرَّد قصدُه، فإنه معرَّضٌ لأنْ يكون مبتدأً تسعير النار لو فسدت نيته.

والعامل بما علم لما كان مضاعَفَ الأجر باجتماع العلم والعمل مفضَّلًا على العامل على جهل، فإنه مضاعَفُ الوزر بهجره العملَ بما عَلِمَ قاصرٌ عن رتبة الهاجر عن جهل، فقليلُ العلم من هذه الجهة أسلمُ من كثيره، ولذلك قال أبو الدرداء رضي الله عنه (٣٢هـ): (ويلٌ لمن لا يعلم ولا يعمل مرَّةً، وويلٌ لمن يعلم ولا يعمل سبعَ مرَّات)[1].

ومن جهةٍ أخرى، فإنَّ الطالبَ الساعيَ لنوال لذة العلم لِيبلُغَ به مدارجَ الإيمان ربَّما كان هذا العلم الذي يقصده من أكبر العوائق الصادَّة له عن صلاح قلبه!

لماذا هذه التقدمة؟

إذا فَقِه طالب العلم حقيقةَ ما يطلبه، ولأيِّ شيءٍ أعلى الله تعالى مقامَه = أيقن أنه إلى علمٍ قليلٍ يستحثُّ جوارحَه للعمل وقلبَه إلى القرب من الله تعالى أحوجُ منه إلى كثيرٍ يُثقِلُ جوارحَه ويُبعِدُ قلبَه.

وقد قال الإمامُ مالكٌ (١٧٩هـ): (لا أحبُّ الكلامَ إلا فيما تحتَه عمل، لأني رأيت أهل بلدنا ينهون عن الكلام إلا فيما تحته عمل)[2].

---

(١) جامع بيان العلم وفضله لابن عبدالبر (١: ٥٥٦).
(٢) جامع بيان العلم وفضله (٢: ١٨٩).

ومدَّ حبلًا إلى العلوّ فنقل عن القاسم بن محمد (١٠٨هـ) أنه قال: (أدركتُ الناسَ وما يعجبهم القول، إنَّما يعجبهم العمل)[١].

وهذا من تمامِ الفقه عن الله تعالى، وكمالِ رعاية العلم، فالعلم إنما شَرُف لشَرَفِ ثمرته العملية القائمة بالقلب والجوارح، فـ (الذي يفوق الناس في العلم جديرٌ أن يفوقهم في العمل)[٢] كما يقول الحسن البصري (١١٠هـ)، فإذا لم يؤَدِّ ثمرتَه المنوطةَ به انحلَّ شرفُه وارتفع عنه فضلُه .. بل زاد من تدقيق الحسن لهذا المقام أنْ جعل من العلمِ مَهرَبًا للعاطلين عن العمل!

وذلك أنه دخل المسجد يومًا، فقعد إلى جوار حلقة يتكلمون، فأنصتَ لحديثهم، ثم قال: (والله ما هؤلاء إلَّا قومٌ ملُّوا العبادة، ووجدوا الكلامَ أهونَ عليهم، وقلَّ ورعُهم وتكلَّموا)[٣].

وإذًا، فالبدء بفرض القلب وواجب الروح فرضُ طالب العلم وواجبُه، وتعرُّفُ سلوك الطريق وقطعُ عقبات القلب من أجلِّ أولوياته، ثم لينظر بعد ذلك فيما فيه صلاح العباد، وقد قال بعض السلف: (ما تعلمتُ العلم إلا لنفسي، وما تعلمتُه ليحتاج الناس إليَّ).

فعقَّب مالكٌ (١٧٩هـ) على هذا القول مسلسِلًا هذا الصنيع كعادته في ضبط معالم الأمر الأول، فقال: (وكذلك كان الناس، لم يكونوا يتكلَّفون هذه الأشياء، ولا يسألون عنها)[٤].

---

(١) جامع بيان العلم وفضله لابن عبدالبر (٢: ١٧).
(٢) جامع بيان العلم وفضله (١: ٥٦٨).
(٣) حلية الأولياء لأبي نعيم (٢: ١٥٦-١٥٧).
(٤) المدخل إلى السنن الكبرى للبيهقي (١: ٢٧٣)

جرى ذكر معروف الكرخي (٢٠٠هـ) في مجلس الإمام أحمد (٢٤١هـ)، فقال أحد الجلوس عن معروف: (قصير العلم).

وَيْلُمِّ ذا القائلِ .. ربَّما كان حديثَ العهد بمجلس أحمد!

انتهره أحمد وقال له: (أمسِكْ) .. ولَكَأنَّما انسدلتْ أمام ناظرَي أحمدَ سيرةُ معروفٍ وزهدُه وورعُه وفَرَقُ قلبِه من ربِّه، فشقَّ عليه أن يُلمَزَ في مجلسه بقصر العلم وقد كان من شأنه ما كان.

ثم نطق بلسان الإمامة بعد تجرِبَةٍ طويلةٍ مع العلم وأهله، تجرِبَةٍ حدَّثَ عن طرفٍ منها بقوله: (سافرتُ في طلب العلم والسُّنَّة إلى الثغور، والشامات، والسواحل، والمغرب، والجزائر، ومكة، والمدينة، والحجاز، واليمن، والعراقين جميعًا، وأرض حوران، وفارس، وخراسان، والجبال، والأطراف)[١]. وبعد ذلك كلِّه يقول: (وهل يُرادُ من العلم إلاَّ ما وصل إليه معروف؟!)[٢].

يا لله! ما قال رضي الله عنه: لم يكن قصير العلم، والحال أنَّ معروفًا لم يكن واسع العلم بالمعنى الذي يقصده اللَّامز، لكن ما هكذا يُقاس الرجال، ولا هكذا يُعايَرُ العلم، فأراد أن يقذف في روعه أن العلم لا يُقوَّمُ بطولٍ ولا قِصَر، ولا بضيقٍ واتِّساع، بل بما قام بالقلب من الإيمان واليقين، فقال بهذا الفقه تلك القَولةَ الخالدةَ الأسيفةَ: (وهل يُرادُ من العلم إلَّا ما وصل إليه معروف؟!).

(١) طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى (١: ١٠٩).
(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي (٩: ٣٤٠).

وقد كان عَلَمُ الزهَّادِ أبو محفوظ معروفٌ الكرخيُّ (٢٠٠هـ) على دراية بحقيقة العلم، ولذا سجَّل خلاصة مطالعاته في صحيفة الحياة بما انتهى إليه علمه من أحوال العلم وطلابه، فقال: (إذا أراد الله بعبدٍ شرًّا أغلق عنه باب العمل، وفتح عليه باب الجدل)[١].

وبهذا الفقه بلغ أنْ قال فيه إمام الدنيا أحمد بن حنبل (٢٤١هـ) ما قال، فعلمُ الطالب إن شُغِلَ بكَمِّ المسائل عن كَيفِ القلب أُغلِقَ دونَه بابُ العمل، وإذا لم يتحرَّك علمُه بالعمل تحرَّكَ بالتباهي والجدل، ولا آفةَ أمحقُ بالعلم وبركته من أن يكون محلًّا للتباهي والجدل.

ثم يأتي ابن الجوزي (٥٩٧هـ) ليقرِّرَ أنَّ العلمَ وحدَه قاصرٌ عن إصلاح القلب، فيقيِّدُ خاطرُه أن (الاشتغالَ بالفقه وسماعَ الحديث لا يكاد يكفي في صلاح القلب إلا أن يُمزَجَ بالرقائق والنظر في سير الصالحين)!

وليس هذا منه مجرَّدَ خاطرٍ عابرٍ سَنَحَ له وقيَّده، بل الشأن كما قال: (وما أخبرتُك بهذا إلا بعد معالجة وذوق) .. ثمَّ بيَّنَ كيف لا يكون ذلك كافيًا في صلاح القلب، بل تعجَّب أصلًا من تحقُّقِ صلاحه معه، فقال: (لأني وجدت المحدثين وطلاب الحديث همة أحدهم في الحديث العالي وتكثير الأجزاء، وجمهور الفقهاء في علوم الجدل وما يُغالَبُ به الخصم .. وكيفَ يَرِقُّ القلب مع هذه الأشياء؟)[٢].

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي (٩: ٣٤٠).
(٢) صيد الخاطر (٢٢٨).

نَعَم، كيف يرقُّ قلب طالب العلم وهو لا يشفع إلى علمه بالمسائل النظرية العلمَ بأحوال قلبه وما به صلاحُه، وهو إن اقتصر على النظريِّ من العلم فإنه بذلك قد نال علمًا، لكن لِيُوقِنْ أن مثالَه (مثالُ مَن اقتصر مِن سلوك طريق الحج على علم خرز الرَّاوية والخف، ولا شك في أنَّه لو لم يكنْ لتعطَّل الحج، ولكنَّ المقتصر عليه ليس من الحج في شيء)[1]، فـ(في الناس من حَصَّل له العلم، وغَفَل عن العمل بمقتضاه، وكأنَّه ما حصَّل شيئًا)[2].

ولو صحَّ قلبُ طالب العلم لكان حرصُه على العمل أعظم في عينيه من حرصه على العلم، ولَكَان فواتُ نصيبه من العمل أثقلَ عليه من فوات شيء من العلم، وذلك أن العملَ ثمرةُ العلم وغايتُه، فما أحسن ما قاله عبدالله بن إدريس (١٩٢هـ) - (نسيج وحده) كما يصفه الإمام أحمد[3] - لما سمع أبا عبيد القاسمَ بنَ سلَّام (٢٢٤هـ) يتلهَّف على بعض الشيوخ، فقال له: (يا أبا عبيد، مهما فاتك من العلم فلا يفوتنَّك العمل)[4].

وكذا قال له عبدالرحمن بن مهدي (١٩٨هـ) لما دخل أبو عبيد «البصرة» ليسمع من حمَّاد بن زيد (١٧٩هـ)، ففوجئ بموته، وشكا ذلك إلى ابن مهدي، فقال له: (مهما سُبِقتَ به، فلا تُسبقَنَّ بتقوى الله عز وجلَّ)[5] .. بمثل هذا كانت تجري وصايا الأئمَّة.

---

(١) إحياء علوم الدين للغزالي (٦: ٦٥٥).
(٢) صيد الخاطر لابن الجوزي (٣٨٥).
(٣) تاريخ مدينة السلام للخطيب البغدادي (١١: ٧٢).
(٤) تاريخ مدينة السلام (١٤: ٣٩٩).
(٥) تاريخ مدينة السلام (١٤: ٣٩٨).

إن كان لطالب العلم همٌّ فليجمعه أولًا في همّ صلاح القلب، وليبلُغ تفكيرُه في ذلك مبلغَ أنفاسه، فإنه معيار صحة طلبه واستقامة قصده .. فيا ضيعةَ العمر إن كان العلم مجلبةً لقسوةٍ ينأى بها الطالب عن مدارج الخائفين!

كان إبراهيم الأمير – أحدُ أمراء إفريقيَّة في القرن الثالث – يقول: (على بابي رجلان: أحدهما يخاف الله ولا يخافني، والثاني يخافني ولا يخاف الله .. فأمَّا الذي يخاف الله ولا يخافني فهو ابنُ طالب، والثاني فلانٌ، فذلك عظيم الحرمة عندي، وهذا الذي يخافني صغيرٌ عندي).

فإذا تصفَّحنا سيرة أبي العباس عبدالله بن طالب القاضي (٢٧٥هـ)، وفتَّشنا عن السبب الذي بلغ به أن قال عنه ذلك الأمير ما قال، وجدنا أبا جعفر القصريَّ (٣٢١هـ) يحكي لنا خبرًا عنه فيه بلاغ، قال رحمه الله: (كان ابن طالب يذكر تَنَازُعَ أصحابنا في المسائل، فربما ذكر في المسألة خمسة أقوال أو ستة، ثم تسيل دموعه، ويضع خده على الأرض، ويقول: «يا فتى، أردتَّ أن يقال فقيه، فهل معك عمل صالح تنجو به من عذاب الله؟ وإلا فما يغني هذا عنك؟!»)[1].

كما قال عنه القصريُّ: (ما رأيتُ أكثرَ دموعًا عند ذكر رسول الله ﷺ منه)[2].

(١) ترتيب المدارك للقاضي عياض (٤: ٣٢١).
(٢) المصدر السابق.

هذا السُّمُوق الإيماني هو الذي رفع الله تعالى به من شأن ابن طالب، وجعله له في قلوب عباده مهابةً.

وإذا ما ظَعَنَّا عن «القيروان» قاصدين «خراسان» نلقى هناك أبا بكر القفال المروزي (٤١٧هـ)، شيخ الخراسانيين، لم يكن في زمانه أفقه منه، ولا يكون بعده مثلَه كما يقرر ناصر العُمَري (٤٤٤هـ)، وكان يُقال عنه: مَلَكٌ في صورة إنسان![1] .. تعلَّق بالعلم، وأجراه منه مجرى دمه، فلم يكن له اشتغالٌ بغيره، وزاد على ذلك أنه كان على فقهٍ تامٍّ بحقيقة العلم، وخُذْها من سيرته.

تصدَّر كغيره من أئمة العلم لإفادة طلاب العلم، والجلوس لتفقيههم، غير أنَّ له حالًا قليلةَ التحقُّق في غيره، فقد كان في سياق درسه وهو يشرح مسائل العلم ويقيِّد عنه طلابُه فوائدَه يتوقَّف .. يتوقَّفُ لسانه عن الكلام، وتتولى عيناه مهمة المواصلة، لكن المواصلة حينئذٍ تكون بالدموع!

لا موعظةَ تمهِّد لهذه الدموع، لا موقفَ يستدعيها، لا مشهدَ يستدرُّها، ولكنه قلب العالم حين يرتاض بخشية الله تعالى فتأتيه الدموعُ على غير ميعاد .. ينقل القاضي حسين (٤٦٢هـ) للعالَمِين هذا الموقف المتكرر المدهش، فيقول عنه: (كان في كثير من الأوقات يقع عليه البكاء في الدرس).

وإذا ناله ذلك أطرق برأسه متفكِّرًا، متأمِّلًا، وطلابُه ما بين مشاركٍ بالدمع ومراقبٍ بالعين، ثم تأتي ختمة الإطراق، فيرفع رأسه، ويستقبل بوجهه طلابَه، وعيناه تفيضُ من الدَّمع، ثم يقول: (ما أغفَلَنا عما يُرادُ بنا!)[2].

---

(١) انظر: طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (٥: ٥٥).
(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي (١٧: ٤٠٧).

ما الذي قام في قلبك أبا بكر حتى قلتَ ما قلت؟

ما الذي أيقظ علمك بالخشية وجعل منه علمًا لا كالذي نطلبه؟

أي غفلة تلك التي أنبتت زفرة الأسى وأنت تتعبد الله في مجلس علم؟!

أين السبيل أبا بكر لهذا الإطراق وذلك الدَّمع؟

*****

قال الشاطبي (٧٩٠هـ): (العلمُ الذي هو العلمُ الـمعتبرُ شَرعًا - أعني الذي مدح الله ورسوله ﷺ أهله على الإطلاق - هو العلمُ الباعثُ على العمل، الذي لا يُخَلِّي صاحبَهُ جاريًا مع هواهُ كيفما كان، بل هو الـمقيِّدُ لصاحبه بمقتضاه، الحاملُ له على قوانينه طَوْعًا أو كَرْهًا)[1].

كثيرٌ من الحقائق مُرُّ المذاق، لكن لا بدَّ من تجرُّعه: علمٌ لا يوصلُ إلى الله تعالى، ولا يوجبُ رِقَّةَ القلب، ولا يُجرِي دمعَ العين من خشية الله تعالى = إن لم يَضُرَّ في الآخرة لم ينفعْ، وليس هو بالعلم الذي جاءت النصوص بالحثِّ عليه، ولا بالذي نال أهله درجة الوراثة من أنبياء الله ورسله، و(من أُوتِيَ من العلمِ ما لا يبكيه لَخليقٌ أن لَّا يكونَ أُوتِيَ منه علمًا ينفعه) كما يقول (ذو الخُشُوعِ الغَيبيِّ، والدُّمُوعِ السَّنِيِّ) عبد الأعلى التَّيْمِي[2].

---

(١) الموافقات (١: ٨٩).

(٢) مسند الدارمي (١: ٣٣٠ - رقم: ٣٠٠). وانظر: حلية الأولياء (٥: ٨٨).

يستطيل الزمان على طالب العلم والقلبُ هو القلب، إن لم يتأخَّر عما كان عليه، ومتى كان القلبُ على هذه الحال من التقهقر الإيماني كان ذلك دليلًا على دَخَنٍ في قصدِ الطالب، وانحرافٍ في مسار نيَّتِه، (فإنَّ مَن طلب العلم للآخرة كَسَرَهُ علمُه، وخشع قلبُه، واستكانت نفسه، وكان على نفسه بالمرصاد)[1].

لم تجرِ على وجنتيه دمعةٌ حين نظره في مسألة من مسائل العلم، ولا اقشعرَّ بدنه حين قلَّب النظر في نصوص الوحي محاولًا الاهتداء بدلائل القلب قبل دلائل اللسان .. يتذكَّرُ ذلك، ويتلمَّظُ من فرط حسرته، فيستحثُّ ذهنَه لتأويلاتٍ مهدِّئَةٍ، من جنس أنَّ العلمَ في حد ذاته عمل، والفضل للمتعدِّي، «ولولا نَفَر»، «وكلٌّ ميسَّر»، «وكلانا على خير» .. فيأتي بها وبأشباهها مكشوفة مفضوحة، يَقنَعُ بها عقلُه ويستحيي من قبولها فؤادُه، والشأن كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨] .. فإن لم يخشَ الطالب من الله فلينظر في هذا العلم الذي يطلبه، أيُّ علمٍ هو؟ فليس هو بالذي سأل نبيُّنا المزيدَ منه، ولا الذي بشَّر بأن الحيتان تستغفر لمعلِّمه، ولا الذي من سلك سبيله سهَّل الله له طريقًا إلى الجنة.

---

(١) الكبائر للذهبي (٥٣).



(لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ عِنْدَهُ شَيْءٌ مِنَ العِلْمِ أَنْ يُضَيِّعَ نَفْسَهُ)

ربيعة الرَّأي (١٣٦هـ)

جاء في الصحيحين [خ: ١٠٠، م: ٢٦٧٣] من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله لا يقبِضُ العلمَ انتزاعًا ينتزعه من العباد، ولكنْ يقبِضُ العلمَ بقبض العلماء، حتى إذا لم يُبْقِ عالـمًا اتَّخذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالًا، فسُئِلوا، فأفتوا بغير علمٍ، فضَلُّوا وأَضَلُّوا».

قَبْضُ العلم إذًا لا يكون بانتزاعِه من العباد، ورفعِه من صدور الرجال، بل بموت أهله وقبض حَمَلته، وقد جاء عن بعض السلف في تفسير قول الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ [الرعد: ٤١] أنَّ نقصَها بموت العلماء وذهاب الفقهاء، وقد تلقَّى العلماء هذا التفسير بالقبول(١).

الأَرْضُ تَحيَى إِذَا مَا عَاشَ عَالِمُهَا
مَتَى يمُتْ عَـالِمٌ مِنْهَا يمُتْ طَرَفُ
كَالأَرْضِ تَحيَا إِذَا مَا الغَيْثُ حَلَّ بِهَا
وَإِنْ أَبَى عَادَ فِي أَكنافِهَا التَّلَفُ(٢)

---

(١) انظر: جامع بيان العلم وفضله لابن عبدالبر (١: ٤٨٧).
(٢) انظر: تاريخ دمشق لابن عساكر (٣٧: ٢٥٦).

وطالبُ العلم إذا استحضر ذلك كان طلبُه للعلم طلبًا لبقاء هذا العلم وديمومته، طلبًا لبقاء أنوار الرسالة الإلهيَّة في الأرض، وفي ذلك استبقاءٌ للدنيا واستحياءٌ لأهلها، فإنه لا بقاءَ لها إلَّا ما دامت شمسُ الرسالة تضيءُ أطرافَها، فـ(الدُّنيا كلُّها ملعونةٌ ملعونٌ ما فيها إلَّا ما أشرقتْ عليه شمسُ الرسالة وأُسِّسَ بنيانُه عليها، ولا بقاءَ لأهل الأرض إلَّا ما دامت آثارُ الرُّسُلِ موجودةً فيهم، فإذا دَرَسَتْ آثارُ الرُّسُلِ من الأرض وانمحَتْ بالكليَّةِ خَرَّب الله العالَمَ العلويَّ والسفليَّ وأقام القيامة)[1].

وقد أفرد الإمام البخاري (٢٥٦هـ) في صحيحه كتابًا للعلم، وعقد فيه بابًا ترجمه بـ: (باب رفع العلم وظهور الجهل)، ومعلومٌ ما للبخاري من عظيم الفقه في وَضْعِ كتابِه وصُنْعِ تراجِمِه وانتقاءِ ما يورده تحت كل باب من أبوابه، وقد كان من بديع ما صنعه - وما أجلَّ صنائعَه! - أنْ صدَّرَ هذا الباب بقول ربيعة الرَّأي (١٣٦هـ): (لا ينبغي لأحدٍ عندَه شيءٌ من العلم أن يُضيِّعَ نفسَه).

قد كنتُ على علمٍ بمقالة ربيعة، لكنَّ جلالةً أخذتْ بتلابيب قلبي لما رأيتُ موقعَها من صحيح البخاري، هي رسالةٌ منه لكلِّ طالبِ علمٍ أن كنْ حافظًا للعلم بطلبك، وضامنًا لبقائه باجتهادك، فلا تضيِّعْ نفسَك، فإنَّ في تضييعها تضييعًا للناس، بل تضييعًا للدُّنيا بأسرها .. **فاللَّهُمَّ لا تَعُقْنا عن العلم بعائق، ولا تَـمْنَعْنا عنه بمانع.**

(١) مجموع الفتاوى (١٩: ١٠١).

وبعدُ، فهذا هو سِفْر الارتياض، ونجازُه أن يعلم طالب العلم أنَّ مبتدأ الأمر ومنتهاه: توفيقُ الله تعالى، فكلُّ ما مضى ذكرُه من آلات العلم وصناعاته ورياضاته إنما هي محضُ أسباب، إذا جلَّلَها توفيقُ الله تعالى حَيَتْ، وإذا وُكِلَ فيها الطالبُ إلى نفسه خَوَتْ .. فلا الظروفُ المحيطةُ بالطالب من اختلائه بالعلم وانصراف الصَّوارف عنه وتهيُّؤِ الأسباب المعينة له على التحصيل، ولا مقوماته الذاتية من ذكاء وحفظ وغيرها = ليس شيءٌ من ذلك بنافعِه إذا تخلفت عنه الرِّعاية الإلهية والمعونة الربَّانية.

جهر بذلك نوحٌ ﷺ لقومه فقال: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ [هود: ٣٤]. وعلَّمه الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ [يونس: ٤٩].

وهكذا فليكن وارثُ الأنبياء، معتمِدًا في تحصيله العلمي على الله وحدَه، متخلِّصًا من حَوْلِه وطَوْلِه وقُوَّتِه، إذْ لا حولَ له ولا طولَ ولا قوَّةَ إلَّا بالله.

إذا لم يكن عــونٌ مــن الله للفتى
فــأوَّلُ مــا يجني عليه اجتهادُه

ضُحَى يوم الأبعاء ٨/ ٥/ ١٤٣٧هـ
في مجلة البيان العامرة
«الرياض»

الجرائد

- جريدة الأعلام.
- جريدة المصادر.